البشرى فى مرايا الجرح والتعديل فى التاريخ السياسى

بقلم : ظافر القاسمى

كان الشيخ عبد العزيز البشري أزهريا حرا ، ولا بد لمن كان أزهريا أن يدرس علوم القرآن والسنة وعلم مصطلح الحديث وهوالعلم الذي يترتب عليه معرفة مراتب السنة الشريفة ، ودرجة الزامهـــا ، والعمل فيها ، وكيف يمكن أن ينشأ عنها الحلال والحرام في شـــؤون الدين والدنيا ، وباب (الجرح والتعديل) من أهم الفروع التي يهتم بها الاساتذة والطلاب في دراية السنة دراية صحيحة ، لأن هذا الباب هو الذي يصنف الرواة بالاستناد اليه ، فمنهم المأمون والثقة والعـــدل ، ومنهم المجروح بالنسيان أو بالتدليس أو بالكذب أو بالوضع ، الى غير ذلك مما هو معروف في كتب مصطلح الحديث • وقد انتقل هذا الباب كما انتقل غيره الى علم مصطلح التاريخ من أجل تمحيص الحـوادث التاريخية ، ومعرفة الحقيقة من الباطل ، والصحة من الوضع ، وغير ذلك مما يتعلمه طلاب الجامعات •

واذا كان الحديث عن رواة السنة النبوية مقبولا ، ومعقولا ، ثم أصبح واجبا ، فلا كذلك كان الحديث عن رجال السياسة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وانما كانت أنظمة الحكم تمنع نشر أي شيء عنهـــم ، وتحيطهم بهالة من الحصانة ، مهما تكن أقوالهم وأفعالهم ، وآثارهم علـــى الحياة العامة للمواطنين والوطن ، ولكن لم تكن هذه الحصانة حصينة دومـــا بل تسرب النقد والجرح بأشكال مختلفة : منها الاغاني الشعبية ، ومنهـــا النكات المحلية ، ومنها التوريات البديعة •• وغير ذلك من أشكال النقـــد حتى جاء البشري بشيء جديد لم يكن معروفا من قبل ، ولم يقلد فيما بعد :

قد تناولها من (المصاريف السرية) بينما هو يقبض من خزانة الدولة ألف جنيه لهذا الغرض في كل عام !

ومما يحسن ذكره في هذا الموضوع ماتحدثوا به من أنه لما زار أوربا في الصيف الماضي ، طاف بجميع المفوضيات المصرية هناك ، فسل كل مافيها من (المصاريف السرية) حتى اذا علم أنه قد أتى على كل مافي مفوضية باريس من هذه الاموال ، ولم يدع لها قرشا و لابارة ، أرسل تلغرافا الى مفوضية لندن لتسعفه بكل ماعندها من النقود ٠

ولقد تعرف في زيور باشا طيبة في القلب ، وسلامة في الخلق ، ثم لقد يظهر لك فيه من المكر ، وترى له من أنواع الدس ، مايعي بمثله أخبث الشياطين ، ولقد ذكروا أنه كلما التقى بسعدي أنب قومه على اتفاقهم مع الد أعدائهم الاحرار الدستوريين ، واذا أصاب حرا دستوريا قال له : كيف يصح أن تتحدوا مع أولئك المجانين المخربين ؟)

وكان في مصر رجل دعي (أستاذ الجيل) ، ذلكم هو أحمد لطفي السيد ، الذي كان من حزب الامة وكان رئيسا لتحرير جريدة سميت (الجريدة) وقد قال عنه البشري :

لم يكن لطفي في سنيه تيك صحفيا فحسب ، بل كان أستاذا يشرع في العلم ، والفلسفة ، وفنون الاجتماع ، وكان له طلاب من الشباب ، أهل المواهب والذكاء ، فما راقك اليوم من علم فلان ، وما أعجبك من عقل فلان وما راعك من أدب فلان ، فأولئك ــ في الحق ــ أكثرهم من صنعة لطفي السيد في تلك الايام ٠

ثم يشير الى جهاده مع الوفد المصري ، أي مع سعد زغلول ، ثم يقع الشقاق فيتسلل الى بيته ، ثم يضحي مديرا للجامعة ، فيقول البشري :

ولقد فاتني أن أقول لك : ان هذا الرجل الذي ضحى بالمنصب في سبيل الثورة ، قد عاد فضحى بالثورة في سبيل المنصب ٠٠ والى هنا ينتهي عندي ذلك الرجل العظيم ٠

وعساك تتحداني بأنه أصبح الاستاذ الاعظم الرسمي في كل البلاد ، من يوم أصبح (مدير الجامعة) فأجيبك بأني (ماعنديش خبر) بشيء من هـذا كله ، وكيف تريدني أن أصدق أن الاستاذ لطفي السيد كلـه أصبـح مدير الجامعة ، في حين لم أسمع بأنه فاض على الطلاب درسا ، أو ألقى محاضرة في العلم واحدة ؟ فان كنت تريد (بمدير الجامعة) ذلك الموظف الذي ينكسر همه على طلب كسى الحجاب والسعاة وتسوية أجور البوابين والجناينية ، و (العرض) لوزارة المعارف عمن يلزم ترقيتهم من جماعة الكتاب فليس ذلك بالرجل الذي يعنينا في مثل هذا المقال ٠

(الحق أن لطفي أستاذي ، وانه ليسوؤني أن يختم حيـاته في هـذه الجامعة ، من حيث يجب أن تبتدىء الحياة القوية لعظماء الرجال)

ولا يكتفي البشري بهذا ، بل يشير الى تدخل المستعمر في الجـامعه فيقول :

والواقع أن الداء (الاجنبي) قد تفشى في تلك الجامعة ، في حين لـم نر لذلك (الحكيم) قولا ولا عملا لو كان هذا المقام مقام تفصيل في مثل هذا الباب لباديت أستاذي العظيم بكثير ٠

ويختم البشري مقاله بهذا القول الرائع :

واذا كنت لم أقع من لطفي على أجل فضائله ، فلعلي قد تهـديت الى أجل مكارهه ، ان كان ماهتفت به يعد في المكاره ، واني لأرجو بهذا أن أصيب رضاه كاملا ، ولقد دخل رجل من الناس على بعض الحكماء ، فأقبل عليـه يمدحه ويعدد محامده ، فقال الحكيم : ياهذا أولى لك ــ وان اكبارك لما ترى في من فضل لدليل على أنك لاتراني كفءا له فلوقد دللتني على هنـاتي ، فتلك التي ليست بكفء لي ٠

وبهذا النقد الجارح ، وبهذا التوجيه الصريح ، يتناول البشري أستاذه ثم يتحدث بكلمة موجزة عن حقوق الاساتيذ على التلاميذ ، فيقول :

(أسأل الله تعالى أن يعيننا على خدمة أساتيذنا وأحبائنا ، فنحن في حقوقهم من هذه الناحية جد مقصرين !!!) نعم هكذا أختم المقال ، مع ثلاث

وفينا اليوم علماء كبار ، ولنا اليوم شيخ اسلام جليل المقدار ، لـــم يمنعهم علمهم ، ولا دينهم ولا شدة ورعهم عن أن يفقهوا الدنيا ويجاروها في مظاهر حضارتها ورقيها حتى لايطلقوا فينا القالة ، ولا يبعثوا الالسن تتنقص الدين ، والقول بأنه يدعو الى الجمود ، ومناهضة عوامل الرقي والتقدم في الدنيا ، الى حد أن يحيوا ليلة القدر المباركة في دار الوكالة الانجليزية في شهر رمضان الماضي !

ولو قد استشرفت لك ليلة القدر ، فكشفت لك عن (خزانة) الشيخ أبي الفضل الجيزاوي شيخ الاسلام لما وقعت عينك فيها على فقار من الخبز ، بل لوقعت على الآلاف من (البنكنوت) الى أمثالها من أسهم الدين الموحد ، وشركة السكر ، و (الرنت) الفرنسي ، و (القونسوليه) الانجليزي ، وقناة باناما ، و (يانصيب) بلدية باريس الى وثائق الرهون ، والغـــاروقات ، والامتيازات العقارية ، والاختصاصات ، وأحكام نزع الملكيـات ، وان شئت اجمالا قلت : ان خزانة شيخ اسلامنا ــ والحمد لله ــ لاتقل عن خزائن ثلاثة (بنوك) مجتمعات !!

ويعلق الشيخ البشري بظرفه المعتاد فيقول :

(ومَا لنا لانغتبط بهذا ، ولا نباهي به ، وقد كانت كل العمليات المالية في أيدي الافرنج واليهود والاروام والارمن ، وهاهي تي الآن ، تستخلصها من براثن أولئك الاقوام ، أيدي سادتنا العلماء الاعلام) • اهـ

وبعد فحري بكل دارس لتاريخ مصر المعاصر ، ولاسيما أساتذةالجامعات أن يعودوا الى هذا المصدر الهام ، وأن يوصوا طلابهم بالرجوع اليه ، وأن يتخذه المتأدبون نبراسا لهم وقدوة •